مقـــــالات

مفهوم التاريخ لدى مدرسة الحوليات الفرنسية

د.رنيمة أحمد

جامعة الشلف

إن الاشكالات الجديدة التي أعيد طرحها من طرف أغلب المهتمين بالدراسات التاريخية، من مؤرخين وفلاسفة ومفكرين، كانت نتيجة لما حصل من تحوّل في مناهج ومدارس الكتابة التاريخية منذ بداية القرن العشرين، وبناء على هذا، فهل يمكن اعتبار هذا القرن هو بداية شكل جديد من أشكال التفكير في التاريخ؟وهل هذا التحول أحدث حقا قطيعة مع مختلف أشكال كتابة وتفسيرالتاريخ السابقة؟

يُعرّف التاريخ، إضافة إلى أنه الدراسة العلمية للأحداث البشرية الفعلية الواقعية الماضية... بأنّه "العلاقة بين المظاهر الماضية، الخاصة بالحياة: الحياة الانسانية، حياة المجتمعات والأفراد"[1].

لقد اعتبر بول فاين PaulVeyneوهو من ألمع مؤرخي فرنسا حلال القرن العشرين، أنّ ما حدث في هذا القرن كان "طفرة التاريخ" فالطفرة الثانية هي التي استطاع من خلالها مؤرخونا تجسيد الوعي بالحدث التاريخي شيئا فشيئا، الحدث الذي يعتبر كل شيء مدين للتاريخ فهذه كانت الثانية. أما الطفرة الأولى التي عرفها التاريخ العالمي، فهي حينما تخلصنا من التفسير الاسطوري لتعقب الحقيقة التاريخية.[2]

إنه لا يوجد تاريخ سياسي كبير، يُروى، بل أن كل فعل، وكل حركة إنسانية لها دلالتها ومعانيها الخاصة والمتميزة التي تهم المؤرخ، كما تهم كل المختصين في فروع المعرفة الأخرى، أي ضمن مخال العلوم الإنسانية بصفة عامة.

إن هناك العديد من نماذج مدارس التاريخ المعاصر التي تجاوزت التاريخ التقليدي الحكائي/الروائي، وحققت معه قطيعة بشكل أو بآخر، متأثرة في

1- Dictionnaire Larousse, Larousse, Paris, 1991

2 - Veyne Paul, EncyclopaediaUniversalis, France, 1990, corpus, 11, p 466

ذلك بما قدمته العلوم الإنسانية الأخرى، والفكر الفلسفي الجديد من أفكار ومفاهيم ومناهج جديدة.

1 - ظهور مدرسة الحوليات:

من أجل مواجهة المدرسة الوضعية للتاريخ ظهرت أطروحة جديدة في مدارس التاريخ الفرنسي المعاصر، وكانت أهمها مدرسة الحوليات EcoledesAnnales تعبّر عن أفكارها في البداية في مجلة التركيب La Revue de Synthèse منذ سنة 1920م، ثم في مجلة الحوليات Annales التي ظهرت خلال سنوات الثلاثينات، وما تزال تصدر حتى اليوم، ومن خلالها كانت أفكار مدرسة جديدة تتشكل وتتبلور، "فهذا التيار الجديد أهمل الحدث وركز على المدة الزمنية الموغلة في الطول، وحول اهتمامه من الحياة السياسية إلى النشاط الاقتصادي"[3].

ولذلك فقد كانت هناك قطيعة حاسمة مع ما سموه بالتاريخ الحدثي L'histoireévènementielle الذي كان يركز على المدةالزمنية القصيرة والسريعة والأحداث البارزة السياسية والعسكرية بشكل خاص. ويبدو أنّ الأهمية القصوى التي عرفتها مدرسة الحوليات الفرنسية، تمثلت في تميزها الدائم بمحاولة إحداث مقاربة إبستمولوجية في دراسة الماضي. في مقابل المناهج التي كانت تنادي بها المدارس العلمية الأخرى التي عرفت ازدهارا أكبر. ولقد اجتهد لوسيانفابفر LucienFebvre في سلسلة مقالاته "دفاعا عن التاريخ" التي ظهرت فيما بعد في كتاب "معارك من أجل التاريخ"[4] وكذلك مارك بلوخ MarkBloch في كتابه الذي لم يتممه "مهمة المؤرخ"[5] إضافة إلى المؤرخ الكبير،فرنانبروديلصاحب أطروحة ضخمة حول تاريخ البحر المتوسط خلال القرن السادس عشر الميلادي [6]، قام هذا التيار

3_ *Bourde Gay et Martin Herve, les Ecoles historiques, Seuil, Paris, 1988, p 172.*

4_ *Febvre Lucien, Combats pour l'histoire, Paris, Armand Colin, 1952.*

5_ *Bloch Marc, Apologie pour l'histoire ou métier d'historien, 1941, 1949.*

6 - *Braudel Fernand, La Méditerranée et le Monde méditerranéen à l'époque de Philippe II, Armand colin, Paris, 1949.*

الجديد بوضع حدودمعرفيةجديدة لدراسة التاريخ الحدثي، وهو التاريخ التقليدي الروائي، والشروع في قراءة وكتابة تاريخ المدة الزمنية الطويلة، تاريخ الحضارات والمجموعات الاجتماعية الكبرى،بنظمها الاقتصادية وتنظيماتها الاجتماعية وسيكولوجياتها الجماعية، في فضاء جغرافي محدد ومدروس. كما عملت هذه المدرسة على تقريب التاريخ من العلوم الانسانية الأخرى."ففي سنوات 1950-1960 قام المشرفون على الحوليات بفتح الباب أمام الجغرافيا التاريخية والتاريخ الاقتصادي وعلم السكان التاريخي أي الديموغرافيا. كما قاموا في سنواتالسبعينات من القرن العشرين بفتح مجال التاريخ على دراسة الجوانب الفكرية من حياة المجتمعات. وفي نصف قرن من الزمن استطاعت هذه التجربة بث روح "الحوليات" لدى مختلف المؤرخين الفرنسيين زيادة على انتشارها داخل الجامعات والمراكز العلمية، كما أثرت في الكثير من المؤرخين في الخارج، في أروبا الغربية، والولايات المتحدة وأمريكا اللاتينية"[7].

كما وجدت هذه المدرسة صدى واسعا في روسيا حيث يقول يوري بسمرتني: "أنّ هناك ظروف أخرى أدّت إلى وجود اهتمام خاص بالحوليات في بلدنا، تمثلت في ذلك الرفض الذي كانت تعاني منه حتى مدة قريبة من طرف ممثلي التاريخ الرسمي في الاتحاد السوفياتي سابقا"[8].

إنّ وصول مدرسة الحوليات إلى وضع مكانا لها ضمن
اهتمامات المؤرخين والمفكرين الروس،لهو دليل واضح على أهمية مدرسة الحوليات في أوربا وبحاصة أن جزءا كبيرا من هذه القارة كان حصنا منيعا ضمن هيمنة المدرسة الماركسية الجدلية التاريخية.

2 -التاريخ بين الحقيقة والموضوعية

إن كل المجهودات التي بذلت من داخل مدرسة الحوليات، كانت تهدف إلى الاجتهاد أو الاقتراب من الحقيقة التاريخية بدون شك، وهذا

---

7 - BOURDE GAY ET MARTIN HERVE, op. cit., p 172.
8- BESSMERTNYYURI, Les annales Vue de Moscou, in Annales ESC, Jan/Fev., 1992. N°1, pp 245-259

الهدف يصطدم دوما بالذاتية التي كثيرا ما تشوه الخطاب التاريخي العلمي المتزن، ولا يمكن أن يتحقق هذا إلا إذا تم وضع تعريف دقيق لكل من مفهومي الذاتيةوالموضوعية من الناحية المعرفية والمنهجية.

إن التاريخ في نهاية المطاف هو ما يكتبه المؤرخون ولكن قيمته تتجلى فيما يسوغه المؤرخ من وعي فلسفي، فالبحث عن دلالات التاريخ ومفهوم الحقيقة، هو نهاية مغامرة كل منهما، فالتاريخ يجب أن يمتلك الحقيقة لكي يصل إلى الموضوعية. وقد تحمل الموضوعية هنا مدلولات متعددة، لذا يجب أن نأخذها هنا بمنظار إبستمولوجيفالموضوعي هو ما بلوره التفكير المنهجي ونظمه وبالتالي أمكن تفسيره" [9]، ويضيف بول ريكورPaulRicœurقائلا: "إننا ننتظر أن يكون التاريخ تاريخا للبشر، وأن يكون تاريخ البشر هذا مساعدا للقارئ الذي هذبه تاريخ المؤرخين، في بناء ذاتية من مستوى رفيع، أي ذاتية الانسان وليس ذاتيتنا الذاتية"[10].

لقد حاولت مدرسة الحوليات استثمار كل ما يمكن استثماره من علوم ومعارف ومناهج بحث لتحقيق الوضعية، وبالتالي الوصول إلى الحقيقة التي وصلت إليها العلوم الطبيعية، حيث حاول مارك بلوخ في كتابه "مهمة المؤرخ" أن يضع المعايير والثوابت الممكنة لتحقيق هذا الهدف، كما قام فرنان بروديل خاصة في كتابه "البحر المتوسط والعالم المتوسطي خلال عهد فيليب الثاني" التأسيس لمنهج جديد وتجديد بعض المفاهيم، بإعادة النظر في الزمن واعادة الاعتبار إلى المدة الأكثر طولا، وإعطاء الفضاء الجغرافي مكانا جديدا في التاريخ وجعل من الاقتصاد عاملا أساسيا من عوامل توجيه حركة التاريخ.

3 - بروديل: التاريخ والطفرة

يحدثنا فرنان بروديل عن نفسه وبإسهاب في كتابه Ecritssur l'histoire، فهو من مواليد 1902 بشمال فرنسا، (توفي في سافوا سنة

[9]- *BOURDE GAY ET MARTIN HERVE, op. cit., p 172*
[10]- *RICŒUR PAUL, (1955), Histoire et Vérité, Seuil, Paris, p23.*

1985)، كما يروي لنا كيف قضى طفولته السعيدة بين الريف مسقط رأسه وباريس أين كان يدرس والده، وكيف تحصل على شهادة التعليم ارتحل إلى كل من قسنطينة والجزائر العاصمة كمدرس للتاريخ في الفترة الممتدة بين سنوات 1923و1931 وبعدها انتقل إلى البرازيل حيث التقى بكلود ليفي ستروس [11] وقد أدت به رحلاته الكثيرة بين ضفتي البحر المتوسط، شمال إفريقيا وجنوب أوروبا إلى اكتشاف وحب هذا البحر. وكان هذا هو العامل الأساسي الذي أدى به إلى اختيار موضوع دكتوراه حول تاريخ البحر المتوسطوالذي ظهر فيما بعد في كتابة ضخم شكلا ومضمونا.كما تعرف إلى لوسيانفابفر، الذي أصبح صديقه الحميم ومارك بلوخ وهنري بار في مدرسة الحوليات التي كانت تختلف عن مجلة التركيب التي تميل إلى التنظير وتهتم بالمفاهيم الأكثر تجريدا. ويقول "مع الحوليات نحن على أرض الواقع، وفي صفحاتهاذكرٌ لرجال في الزمن الحاضر والماضي نتعقبهم بمشاكلهم المحسوسة، إنهم أحياء" [12]. ومنذ سنة 1939 حتى سنة1945 كان لاعتقال بروديل وبقائه في المعتقلات الألمانية السبب المباشر في كتابة"البحر المتوسط" حيث كان بذاكرته الخارقة يسترجع ما درسه من وثائق تاريخية،وشرع في إنجاز هذا العمل الضخم، وبعد خروجه من المعتقل قام بإعادة تصحيح وتقويم ما كان قد فاته وصدر الكتاب عام 1949في طبعة ثانيةحوت1222ص. وكان يقول لوسيانفابفر"لولا السجن لما أمكن لبروديل إنجاز هذا العمل". وقد حاول بروديلفي هذا المؤلف شد أنظار المؤرخين إلى رؤية جديدة حول قضايا التاريخ، وإلى التخلص من الشعور العميق "بالأزمة" التي عاشها التاريخ خلال العشرين أو الثلاثين سنة الماضية"[13].

لقد وجّه بروديل انتقادات شديدة للمؤرخين الذين وصفهم بالتقليديين وأيضا إلى نماذج التاريخ الحديث الذي يركزالوصف والدراسة

11- *BRAUDEL FERNAND' (1969), Écritssurl'histoire, Flammarion,Paris. p 23*
12- *Ibid, p 23.*
13- *BRAUDEL FERNAND' (1969), Écritssurl'histoire, Flammarion,Paris, p 24.*

عادة على الأحداث السياسية السريعة والبارزة. فالتاريخ الكلاسيكي هو تاريخ روائي يسوغ الأحداث في شكل مأساوي أو في شكل صور مصغرة سريعة خالية من كل تحليل "حينما يتوجهون إلى البحث في الأسباب فهم يمارسون لعبة وهمية لا ترتبط بحقيقة الأحداث"[14].

لكن التاريخ ليس أحداث كبرى فقط بل هو أيضا الأحداث العريضة أو اللحظات التي تبدو بسيطة في مسيرة التاريخ التطورية الكبرى، يتشكل ذلك التحول من الطول، ومن تفسير الزمن الحدثي إلى البحث عن بعد المكان، أي الزمن الجغرافي، ومن التجزئة إلى الشمولية، وهذا ما حاول القيام به، وحقق بذلك تلك الطفرة التي أحدثت القطيعة في المعرفة التاريخية.

4 - أشكال الزمن التاريخي

يحدد بروديل معنى للتاريخ يتخلص في قوله "أن التاريخ هو مجموعة التواريخ الممكنة أي مجموعة المهن ووجهات النظر المنتمية إلى الأمس واليوم والغد" [15]. فكل زمن تاريخي هو عملية تجزئةكرونولوجية، وهذهالتجزئةتعكس عادة اتجاه المرجعية التي ينتمي إليها المؤرخ، ذاتية او موضوعية. وهنا يجعل بروديل من الزمان بعدا من أبعاد المكان وإحداثيا له، ويعرف الزمان التاريخي بأنه "الزمان الواقعي الاختياري المطلق الذي ينطبع بطابع النسبية، فهو يفرز تواريخ متنوعة ومتباينة" [16]، ولذلك يقسم التاريخ إلى ثلاث مستويات رئيسية: فهناك "تاريخ ثابت هو تاريخ الإنسان في علاقته بالمحيط، تاريخ بطيء في حركته وتغيراته...وتحت هذا التاريخ الثابت هناك تاريخ يسير بهدوء، ونقول بكل إرادة إذا لم يتم تحريف الكلمة عن معناها الحقيقي، تاريخ اجتماعي مثل تاريخ المجموعات والتجمعات... وهناك النمط الثالث من الزمن التاريخي وهو التاريخ التقليدي إذا أردنا، هو تاريخ

---

[14]- *SOUARIT BENAMER, Histoire et Mutation.*

[15] - *BRAUDEL FERNAND (1985), La dynamique du capitalisme, Arthaud, Paris, p 3.*

[16]- سالم يفوت، (1991)، الزمان التاريخي، دار الطليعة بيروت، ص42.

ليس فيه بعد الإنسان، ولكن بعد الفرد وهو التاريخ الحدثي [17].وعليه فهناك إذن، تاريخ جغرافي، أي المكان والطبيعة كتاريخ، وتاريخ ظرفي، اجتماعي خاص بالمجتمع والحضارة، وكذلك تاريخ حدثي، وهو التاريخ السياسي التقليدي المعروف.

ولكن الحقيقة أن الزمن واحد في جميع المستويات، فهو نفسه. ولكنه يتخذ صورا وأشكالا متباينة، فيكون زمنا قصيرا أو طويلا، أو موغلا في الطول، إن هذا التقسيم في حقيقة الأمر هو تقسيم لضرورة التبسيطية التعليمية. لقد اتخذ التاريخ عند بروديل الحضارة موضوعا له، فالأفق التاريخي كان موضوعه الحضارة، وهنا يحاول استعمال المنهج التاريخي بطريقة شمولية، موضوعية، وتطبيقه على الحضارة التي هي "مجموعة تاريخية يشملها نمط واحد من الحياة المادية والروحية، وسيمتها أنها مرتبطة أوثق الارتباط بمكانها الجغرافي" [18]. فالحضارة هي محطة موضوع التاريخ وهي ذات زمن متوسط لأنها تشمل أحداث موغلة في القديم، وأحداث متوسط الزمن وأحداث أخرى قصيرة من حيث امتداداتها الزمنية.

إن التقسيم الذي قدمه بروديل يدخلنا حتما في تحليل العلاقة الجدلية بين مختلف الأزمنة الثلاثة أي مستويات الزمن التاريخي، فما هي العلاقات التي تربط بين المدد الثلاث من حيث الشكل،ومفهوم كل فترة أو مدّة من حيث تحديد معناها ووظيفتها في الزمن التاريخي وعلاقاتها بالفترات الأخرى، ومن حيث المضمون أي العلاقات بين المؤرخ الذي يشكل خطاب أو فضاء أبستمولوجيا يتعامل من خلاله مع الزمن التاريخي ليشكل صياغة التاريخ النهائية.

فهذه المدد التاريخية غير معطاة سلفا بل يقوم المؤرخ بإنشائها عن طريقة الخطاب، وبفضل الخطاب التاريخي يتم تحديد العلاقة وضبط

17_ BRAUDEL FERNAND, *La Méditerranée… op. cit., pp 16-17.*

18- سالم يفوت، مرجع سابق ،ص 41.

لعبة البسيط والمركب أي تحليل المدة الزمنية الطويلة إلى مدد بسيطة، "وهذا ما يسمح بكتابة تواريخ عديدة لنفس التاريخ"[19].

5 -البنية والزمن التاريخي

لقد وضعنابروديل من خلال تقسيمه هذا لمستويات التاريخ أمام تصور جديد، هذا التصور نشأ عند تحليل العلاقة الجدلية بين المدد الزمنية وتصور مسار التاريخ في شكله المركب والبسيط فهو يكون إذن ببنية، ويقول لوروا لادوري: " كان كتاب البحر المتوسط هو التجربة الأولى للتاريخ البنيوي"[20].

إن اختلاف الأحداث وتعددها وتنوعها واتخاذها أي مستوى من مستويات الزمن التاريخي الثلاث يجعل التفسير في التاريخ التقليدي تفسيرا روائيا، طويلا، وهذا التاريخ يهم الاقتصاديين بالدرجة الأولى، لأنهم يعتبرون أن الأزمات الاقتصادية هي أزمات بنيوية او أزمات بنيات، "لقد بقيت هذه الأحداث التاريخية مجالا للفرضيات، ولم يتم التحقق منها عن طريق التجربة، فهي كذلك تتيح أفاقا للتاريخ الواسع، فالبنية هي التي كانت تسيطر على التاريخ ذو المدى الطويل[21].

فالبنية حسب ليفي ستروس هي نسق وداخله هناك نظام متجانس بين مختلف الطبقات الاجتماعية، لكن داخل هذا النظام تصبح بعض البنيات ثابتة وبالتالي فإنها تعيق حركة التاريخ، فلا يستطيع الإنسان أو العقل الإنساني تجاوزها، فيتحول التاريخ إلى تاريخ ميتافيزيقي، أو ذاتي، أو فوضى...

وفي هذه المرحلة يكون التاريخ والمؤرخ في مأزق حقيقي، وأمام حتمية، فلا يستطيع أن يعطي للصيرورة اتجاه آخر أو اتجاهات أخرى ذات

---

[19]- سالم يفوت، مرجع سابق ، ص 43.

20_*Pierre Chaunu, La Méditerranée c'est Braudel «entretien», in, L'Histoire n°157, 1992, p 71.*

21- Ibid., pp 71-72.

أبعاد متفاوتة، وفي هذه الحالة تحدث الطفرة، وتنتهي إلى اعتبار الخطاب المؤسس من طرف المؤرخون الصيغة الأكثر تكاملا للتاريخ.

من هنا فقد تركزت أعمال بروديل على الزمان وعلى بعده الجغرافي، وكذا المدة الموغلة في الطول، وفي النهاية على العامل الاقتصادي، وهي التي تمثل الأعمدة الثلاثة لتصور بروديل للتاريخ، وهذا التصور قد تشكل بعدما انتهى من إنجاز مؤلفه الرائد "البحر المتوسط والعالم المتوسطي خلال عهد فيليب الثاني"، كما تقول زوجته "عندما دعيت لأشرح وأتحدث عن البدايات الأولى للمغامرة الفكرية لبروديل... هذه البدايات لم تتشكل في منطق النظريات المجردة، ولكن تشكل ذلك الفكر في عدم انتظام التصورات المبدعة، التي كونت لديه صورة داخلية...وأقول أن هذه النظرية لم تكتمل لديه سوى في وقت متأخر"[22].

لقد أحدث هذا التصور تحولا في شكل التاريخ، ولكن هذا الشكل واصل تحولاته حتى اليوم، كما أن الجغرافيا لم تعد مثلما كانت عليه في الماضي، وأنّ فكرة المدة الزمنية هي الفكرة الأكثر سدادا لتحويل الزمن التاريخي إلى دراسة الظواهر المسجلة في مدد زمنية أخرى في بعض الأحيان تكون قصيرة.أما العامل الاقتصادي فلم يحافظ على مكانته كعامل قوي في تحليل الدراسات التاريخية بعد سنوات الستينات.

إن تعدد التخصصات وادماج مجموعة من العلوم كما نادى بها بروديل لم تعد تؤدي الوظيفة التي كانت تؤديها سابقا بسبب تعقد وتشعب العلوم، وكذا المشاكل الجديدة التي ظهرت داخل المجتمع "نحن نعيش ومنذ حوالي 25سنة أزمة لا نستطع تحديد أسبابها بالضبط" [23]. كما أنّ التخصصات المعرفية الجديدة لم تعد تحكمها علاقات اتصال جيدة.

لقد ترك بروديل مدرسة تهتم بالفكر التاريخي مدرسة تتكون من جيلين مختلفين، جيلا يؤيده ويدافع عن أفكاره وجيل يعارضه، ولكن الفيلسوف

22- *SOUARIT BENAMER, HISTOIRE ET MUTATION.*

23- *BRAUDEL PAUL,comment Fernand Braudel a écrit «la Méditerranée »in l'Histoire N°:207 Fev. 1997. P 84.*

الفرنسي ميشال فوكو سيعمل على استثمار ما قامت به مدرسة الحوليات وبخاصة أعمال بروديل حيث يشيد بهذا التحول الذي شهدته كتابة التاريخ في مقدمة كتابه "حفريات المعرفة" ويقول "إن في هذه النقطة يتحدد المشروع الذي حاولنا أن نرسم خطوطه العامة والأولية في كتاب "الكلمات والأشياء". وفي "تاريخ الجنون"،"ومولد العيادة" وهو مشروع نسعى فيه إلى قياس التحولات التي تحدث عامة في التاريخ"[24].

لاشك أن مدرسة الحوليات الفرنسية وبخاصة أعمال فرنان بروديل التنظيرية وإنجازاته الكبرى العملية، كان لها عظيم الأثر، على مسارات العلوم الإنسانية عامة وعلى التاريخ وقراءته وتفسيره خاصة.

[24]- *FRANÇOIS DUFAY, «Il était écrivain» in l'Histoire, N° :192 oct., 1995, p84.*